القصة الثانية والثلاثون- منك وإليك

هبة اللوح

تقلب عينيها بملل من حديث صديقتها المتذمرة ، فقد طفح بها الكيل و الأخرى تصرخ بعلو صوتها الذي خمد بخذلان عند إدراكها لسخفها مع رد فلسطين :

– أكرهك أيتها الجامعة ، ألا تريدين أن تحتجي معنا على تأخر الرحلة الجامعية يا خائنة ؟

رمقتها بترفع ، و لسانها يجري بحروفها الموسيقية دافعة بالحماس لدمائها ، صاحبه ابتسامة مستهينة :

– يا إلهي أنا أحادث طفلة ، قلت لك اصبري قليلا علهم يوافقون على جعل الرحلة للقدس ، ألا ترغبين بزيارة وطنك المسلوب ، ليتغلغل هواؤه في خلاياكِ ، فتشعرين بأنك ولدت من جديد ؟ ، تحققين انتصارًا صغيرًا على هؤلاء الصهاينة المغتصبين بزيارتك لأرضك التي لم و لن ننساها ؟

رسم الحزن عميقا في عيني فلسطين ، فصمتت رفيقتها احتراما لحرمة ما تمر به فلسطين ، فطعنات الألم تنحرها في قلبها وجعا و قهرا على أرضها ، و التي تتمنى لو تقبل بضع ذرات من ترابها ، لو ترتوي بثوان معدودات من هوائها العذب ، ترجو فقط أن يجاب طلبهم بالرضا .

رفعت حدقتيها اللتين تحتضنان في عمق روحيهما المعنى الحقيقي للألم عندما اقترب منها دكتورها الفاضل بملامح غير مفسرة ، آتيا بجواب طلب رفعوه منذ سنتين دون رد .

شعرت بسعادة اخترقت عمق ظلماتها بدفء الشمس الحاني مبشرة بغد جديد بكل ما للكلمة من معنى ، عندما أخبرها دكتورها بشفتين مرتجفتين سعادة :

– لقد تمت الموافقة على الطلب ، لكن !

اهتز بدنها كله ، تستمع للطعنات بعد هذه الكلمة الغليظة:

– ستكون الرحلة باهظة جدا ، جدا ، و أيضا يجب أن يمتلك المشاركون جواز سفر من الضفة و ليس غزة ، و المشاركون فقط عشرة ، في رحلة سنوية، هذا ما استطاعت الجامعة فعله من مفاوضات طوال سنتين .

دمعة أغرقت قلبها فهي تتوسل زيارة أمها الأصل ، كم أن هذه الشروط مجحفة بحقهم! مجحفة جدا جدا .

لكنها فكرت :لن تكون فلسطين امتدادا لهذه الأرض بعرق نابض إن رفضت ، فهذا قد يرضيها حاليا ، و لكن ليس طويلا، و هي لطالما حاربت ضد ممتلكات قلبها ، وروحها بأنيابها ، و هذه المرة ستكون أعظم هذه الأملاك داخل الحرب الطاحنة التي ستسعى لخوضها ، و الخروج و لو بنصر صغير .

و ها هي تجلس في الباص الذي يهتز كما تهتز صخورها المتصدعة ألما و سعادة في تكامل لا تنفصلان ، و عيناها تنظران للبعيد بشرود يحكي ألف رواية ، ورواية ، تربطان دموعها بإحكام و حزم أم تلم شملهم داخل مقلتيها .

بعد هذا الخبر ، تم اختيار مجموعة الطلاب الذين سعوا لهذا الأمر ،أن يكونوا أول الرحالة للعودة للانتماء الحقيقي ، للاحتماء بدفء وحنان الأم بعد طول غياب و برودة الغربة ، فجميعهم لاجئون ، غزة ضمن وطنهم و لكنها ليست بيتهم الذي ضم أجداد أجدادهم بقصصهم الحانية الحماسية عن الأرض و الوطن، ليست بيتهم الذي لم يكن احدهم ليتجرأ أن يصنفهم بطريقة مهينة هذا لاجئ و هذا مواطن.

و قد ترك لهم حرية الاختيار لأربع أماكن فقط ، فالرحلة من ضمن شروطها المجحفة الظالمة أنها ليوم واحد فقط من الثامنة صباحا حتى الثامنة مساءً ، مهزلة صحيح ؟

و قد وقع الاختيار على الشامخ بعزة و إباء المسجد الأقصى ، و الجالسة بكبرياء و غرور مختالة قبة الصخرة المقدس ، بعدهم الحائط الحزين المنكسر المهود
حائط البراق الشريف الطاهر بطهر من نقل إله الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في حادثة الإسراء والمعراج العظيمة التي خلدت بركة القدس في الدين والتاريخ .

و أخيرا قررا اقتسام وقت زيارة المكان الرابع على مكانين إن استطاعوا ، على كنيسة القيامة أو كما تعرف بالقبر المقدس الراهبة العفيفة بأخلاقها ، و قلعة داود أولئك القوم الذي لا ينتمون للصهاينة بشكل بل ينصرون أحقية الشعب الأصلي بأرضه لا مهودين شياطنة .

كم كانت الرحلة مؤثرة مقطعة لنياط القلوب ، فقد حاولت بصعوبة أن تتمالك أشجانها ، وحزنها ، فليست فلسطين من تظهر تأثرها ، و لكن الموقف كان أكبر من قدرتها ، فبمجرد دخولها ساحة الحرم القدسي الشريف ، ورؤيتها للمسجد الأقصى ،

وسماعها صوت الأذان يخترق الأرجاء بابتهالات عذبة هز تماسكها بقوة جبارة ، فخرت على قدميها تنازع دموعها ، و الألم الذي يعصف بكيانها ، سجدت تضع رأسها على هذه الأرض التي أنجبتها ، تتواصل معها بروحها ، تنقل لها أمجاد أبنائها تضحك تبكي ، كل ذلك انتقل لروح فلسطين ، لأعماق أعماق خلاياها و قلبها ، يربت على أوجاعها ، فتهدأ قليلا ، تحاول التماسك لتحفظ كل نقطة تقع عليها عيناها بلهفة عاشقة .

صلوا في المسجد الأقصى ، جميعهم بدمع يحارب لينزل من رهبة المكان ، بينما دموعها هذه المرة كانت هادئة تدرك الرسالة التي انتقلت إليها من هذا العبير الشذي برائحة أزهاره الندية ، ثم انتقلوا بعدها لقبة الصخرة التي تلمست جدرانها تربط روحها في هذا المكان حتى لا ينقطع تواصلهم أبدا ، تأخذ عنها تاريخها بلا تزوير ، تتنشق رائحتها المسكية بلهفة المهووس ، و الطفل الباحث عن الحقيقة الخالصة من الحنان في أمه .

تلاهما حائط البراق الذي دخلته شامخة رغم استنكار أولئك المهودين لهم ، و استطاعت بقوة و صلابة منحتها إياها هذه الأرض من روحها ألا تسقط دموعها فيكون هذا تأكيد منها على اسمه المهود حائط المبكى ، و اكتفت بالتمسح فيه كقطة ضالة أتخمت أخيرا بالأمان و الاستقرار الذي كان منبعه ذكرى حادثة الإسراء والمعراج العميقة .

و استكملت رحلتهم لكنسية القيامة التي طالعتها بانبهار طفلة تتعلم ، و تعجب بكل ما هو مثير للجمال ، في طريق العودة لمكان التجمع استطاعوا أخذ تذكارات جميلة من المصنوعات و المشغولات ، تشبع روحها بالألفة و العراقة من هذه الشوارع الخالدة في التاريخ رغما عن أنف الجبابرة لتكون زادها فيما بعد ، و ركبوا الحافلات للعودة مجددا .

انتهت الرحلة القصيرة لكنها لم تكن لهم كذلك بل كانت حياة متكاملة بأركانها بشغبها بفرحها بحزنها بعبيرها ، عادت فلسطين أخرى ، فلسطين مشبعة بالتاريخ و الحضارة و التراث و العراقة والأصالة والشموخ ، عادت امرأة صلبة بعيون شامخة عزيزة الإرادة فما شعرت به في روحها لن تنساه يوما ، فقد وصلت ذلك الخيط الذي حاولوا »

» حاولوا بكل قوتهم قطعه ، و لن يعلموا أنه امتد بمتانة خيوط أشعة الشمس في دفئها و صبرها و روحها و ليس في شكلها .

فالقدس لنا ، لنا ، لنا لنا لنا ، فنحن منها و إليها .